دراسات في الآداب الاجنبية

مَدخل إلى كَافكَا

بقلم فيليب راف
ترجمة مهر البطوطي

فرانز كافكا

يرتبط فرانز كافكا (١) اليوم في الاذهان الادبية ارتباطا شديدا باسماء مثل جيمس جويس ومارسيل بروست ويبتس وريلكه واليوت ، وهم من اطلق عليهم بحق « الابطال المقدسون الذين لا يمسون » للنزعة الخلاقة الحديثة . وهو ينفرد بينهم بانه الوحيد الذي لم يتمتع بنجاح شعبي ذي اهمية ابان حياته ، لانه حجب قصصه الطويلة عن النشر ، ولهذا لم تتعد شهرته حلقة صغيرة من الكتاب الالمان ، ولم تأته الشهرة الا في العقدين الاخيرين ، بعد وفاته .

واول مرة ظهرت فيها ترجمة لاحدى رواياته ـ القلعة The Castle ـ كانت في عام ١٩٣٠ ، بعد ان مضت على وفاته ست سنوات . والقلعة رواية تسطع عاليا في سماء الادب الكافكي . وحين ظهرت لاول مرة لم يتمكن من سبر غور قيمتها الحقيقية سوى عدد قليل من القراء ، بل انه حين ظهرت « المحاكمة » The Trial في عام ١٩٣٧ ، لم يكن المعنى الذي قدمه كافكا والدوافع الاساسية عنده هي التي اثارت الاهتمام بقدر ما اثاره الالغاز الظاهر في كتاباته . وقد ادهشت رواياته القراء ، غير انهم لم يقتنعوا الاقتناع الكافي باهميتها . ومنذ هذا الوقت جرت قوة الحس التي تمثل سمة قوية من سماته ، جرت في شريان الدماء الذي يتخلل ادب القرن العشرين . وقد اصبح كافكا موضوعا لدراسات نقدية عديدة في كثير من اللغات . وفي جميع الانحاء ، اتخذ الكتاب الشبان رفيقو الحس الذين شعروا بالحالة المتجمدة للاساليب الروائية السائدة والذين كانوا جاهدين في البحث عن تجديدات خلاقة ـ اتخذوا مثاله الذي اتبعه ماخذا جديا . ولم يعد هناك شك في منزلة كافكا كفنان على النهج الميتافيزيقي الذي يهتم بالتركيب النهائي للوجود الانساني ، او في اصالته الفائقة كمجدد في الاسلوب الخلاق . ومثل ريلكه (٢) في « مرثيات دونيو Duino Elegies » يلقي كافكا بالسؤال الخالد : « ما هو الحقيقي في هذا العالم ؟ » .

وكافكا سيد من سادة النسق القصصي ، اسلوبه دقيق مترو ذو تحفظ ساخر ، وهو يجمع في رواياته بين الحقيقي وغير الحقيقي ، بين ذاتية المضمون الخالصة واشكال غاية في الموضوعية ، بين صورة صحيحة ودودة عن العالم الخارجي والتحلل الحلمي لهذا العالم .

وعن طريق توحيد هذه العناصر المتضادة تمكن كافكا من تحقيق ملاءمات جوهرية جديدة لمصادر الكتابة النثرية . يمكننا القول بذلك الى ابعد الحدود دون ان نتقيد باعطاء تقدير نقدي متكامل لاعماله ، لان مثل هذا التقدير يكون سابقا لاوانه نوعا ما الان . ويكفينا ان نعطي تحليلا ووصفا لصفات هذه الاعمال . وهكذا يتضح انه لو كان كافكا يضطرنا

(١) من كتاب الصورة والفكرة Image and Idea وهو عدة مقالات نقدية مهمة من تاليف الكاتب الامريكي فيليب راف ، طبعة New Directions Paperbook عام ١٩٥٧ ، الولايات المتحدة .

(٢) ريلكه ماريا ريلكه ١٨٧٥ ـ ١٩٢٦ شاعر تشيكي يكتب بالالمانية . له اشعار تدور حول النفس واسرارها ، وكان يكتب في لغة رمزية بحتة ، مقلدا المدرسة الرمزية التي كانت سائدة في فرنسا . ومرثيات دونيو هي عشر قصائد نشرت عام ١٩٢٢ .

الى الاحساس باواصر الصلة بيننا وبينه وبالتماثل القوي القلق ، فان ذلك يرجع الى الصفة القوية التي يتسم بها شعوره بتجربة الضياع الانساني ، بالغربة والاثم والقلق ، وهي تجربة تزداد تسلطا في العصر الحديث .

***

ولا مراء في ان كافكا واحد من اكثر الفنانين الادبيين عصابية (٣) ، وهذا ما يفسر الوعيد المحسوس لرمزيته التصورية وابتعاده الشديد عن انماط الخيال الادبي المحددة المتعارف عليها . ورغم وضوح حقيقة عصابية كافكا ، فانها تمثل للذهن غير الادبي خطرا ، ان لم يكن اغراء مبتذلا ، لان هذا الذهن ينزع الى تشويش الحقائق الجلية بالاحكام والتقييمات النقدية ، وليس هناك خطر اعظم من ذلك في تناولنا للفن الادبي . وحتى نتجنب هذا الخطأ الشائع يجب فوق كل شيء ادراك ان كافكا شيء اكثر من فنان عصابي وحسب ، انه كذلك فنان يكتب عن العصابية ، او بمعنى اخر ينجح في تجسيم حالات العقل التي يتصف بها العصابيون ، من خلال وسائل الخيال . ويعمل عن طريق ذلك على ادماج عالمه الخاص في العالم الذي نعيش جميعا فيه . وحين تتم هذه العملية ، يكون الكاتب الخلاق قد ادى العملية الاساسية التي يكمن فيها سر انتصاره كفنان ان لم يكن كانسان ، ويكون بذلك قد حرر نفسه من شيطانه ومن حمله الشخصي ويحولنا بذلك الى شركاء له من نفس الشيء . وبحكم اشتراكنا مع المؤلف لا يكون لنا نحن القراء سبب طبيعي للشكوى . وقد تكون العصابية هي الباعث او الدافع ، ولكن الاعمال الادبية هي النتيجة . وفوق ذلك ، فان الكاتب الخلاق هو الشخص الاخير الذي يمكن ان نتخذه مثالا في تمييزنا السوي من غير السوي ، فمع كل ما يمكن ان يفعله العالم النفساني من تمييز فج ومفيد ، لا يمكن للفنان ان يلتفت اليه دون ان يقع في نفسه احساسه بالحياة في ذروة تماسكها ونشعبها .

وقد سبق للروائي جراهام جرين ان ادلى بملاحظة مضمونها ان كل كاتب خلاق جدير باهتمامنا ، كل كاتب يمكن ان نطلق عليه لقب شاعر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، ان هو الا ضحية ، هو رجل تسلط عليه شعور ما . وكانت الفكرة التي تسلطت على عقل كافكا احساسا حادا بالقصور والفشل والاثم ، اثم لا يرجع الى ذنب ارتكبه او عمل تركه ناقصا ، بل اثم يكمن في اعماق كيانه الداخلي . وقد كتب كافكا مرة في دفتر ملاحظاته : « ان الحالة التي نجد انفسنا عليها حالة آثمة ، ومستقلة تمام الاستقلال عن الاثم ذاته . » ومفتاح روايته المحاكمة ، « ان فكرتنا عن الزمن هي الشيء الوحيد الذي يجعلنا نتصور وجود يوم للدينونة نطلق عليه هذا الاسم ، وما هو في الحقيقة الا محكمة تعقد جلساتها بصفة مستمرة . » وفي نفس مدار هذا التفكير تبرز الصورة الفكرية التالية : « تلعب كلاب الصيد لاهية في الفناء ، ولكن الفريسة لن تفلت من ايديها رغم ذلك مهما كانت سرعة جري هذه الفريسة بين الغابات . » والتطابق مع الانسان يقع هنا على الفريسة ، وعلى كلاب

(٣) العصابية Neurosis ومنها عصابي Neurotic

الصيد كذلك باعتبارها ترمز لتطلع الفريسة الى عقاب النفس ، ورغبتها الدفينة في ان يتم تضييق الخناق عليها وان تؤذى وتمزق تمزيقا حتى يتم تكفيرها عن الاثم الذي يغمرها من الرأس الى القدم . وفي هذه الجملة القصيرة عن الفريسة والكلاب تكمن خلاصة القصة الكافكية الاصيلة ، موضوع التسلطات ، النواة القصصية التي تتعلق بضحية القوة الغاشمة ، الموضوع الذي يعود اليه كافكا من آن لاخر ، آخذا في تنويع وتعقيد بنائه في ثراء عجيب ، مقيما على اساس بسيط كهذا صرح بناء شامخ ، مثل اسطورة القائد العجوز في قصة « معسكر الاعتقال » ، واسطورة القانون في « المحاكمة » واسطورة البيروقراطية السماوية في « القلعة » .

ومع ذلك يجب الا تقودنا بساطة النواة القصصية عند كافكا الى اهمال الصفات التي تجعله واحدا من اكثر الشخصيات الفازا في الادب العالمي . فاذا تحدثنا عنه باعتباره مؤلفا لاليجوريات دينية فان ذلك لن يفيدنا في شيء ، فعلى خلاف الاليجوريين الدينيين امثال « دانتي » و « بنيان » ، لا يعتمد كافكا في كتاباته على المنطق المحدد لاحد الانظمة الدينية المتعارف عليها . ولا تفترض طريقته الخلاقة وجود اي معرفة خارج الذات . وعلى هذا فهو ليس باليجوري على اي نحو مقبول ، بل الاصح انه مجدد مغرق في الفردية الى درجة لا يمكن معها وضعه في تصنيف من التصنيفات المألوفة . وكذلك فان الصعوبة التي تواجهنا في فهمه تختلف في مستواها عن تلك التي تصادفنا عند قراءة اعمال روائي مثل جيمس جويس مثلا ، فبينما يكمن غموض الاخير في طرق الاساليب البراقة التي يشكل بها مادته وفي تصميمات بنائه القصصي المتشابكة ، فان الذي يحيرنا في كافكا هو المعنى المقصود من قصته فقط . ويمكن مقارنة كافكا بجويس من ناحية اللغة والبناء ، ورغم ذلك فان روايات كافكا الكاملة قد حيرت كثيرا من القراء . وتزول هذه الحيرة لو اننا تعلمنا ان نصغي بانتباه الى نغماته التي يضرب عليها وان نألف الحرية الكاملة التي ينبذ بها بعض التقالية الروائية حين يناسب غرضه الرمزي ذلك . وعلى هذا فاننا حين نطالع الجملة الاولى من قصته « المسخ The Metamorphosis » التي تقول : « استيقظ الموظف «جريجور سامسا» في صباح احد الايام ليجد نفسه قد تحول الى حشرة ضخمة» نخطىء لو تصورنا ان كافكا يقصد عن طريق هذه الضربة الجريئة ان يشير باصبع الاتهام الى قوانين الطبيعة ، بل يجدر القول بانه يتهم التقليد الذي يدعو الى مراعاة الاساليب الطبيعية عند كتابة القصص . وهو بعد ان يبعد عن هذا التقليد في الجملة الاولى من القصة ، يطورها من هذه النقطة بطريقة واقعية . وان مسخ الموظف هو رمز مركب لغربته عن الحالة الانسانية ، رمز ليقظته على رعب وجوده الخامل الميت على الامتعاض اليائس الذي يكمن في لاشعوره ، حيث تلقى الرغبة التي يحس بها في ابعاد ابيه والاحلال محله في محيط العائلة معوقات تنجم عن حاجته الى معاناة عقاب قاس على رغبته المحرمة تلك .

وهناك نوع اخر من الرمزية به نسبة اقل كثيرا من الاستعمالات النفسية ، ويوجد في قصص مثل « سور الصين العظيم The Great Wall of China » . ما هو هذا السور العظيم ؟ انه ايضا رمز مركب للتضامن الانساني ، للتحقيق الدنيوي للذات ولمحاولة بني الانسان الحصول على مساعدة القوى الغيبية : ولكن لماذا شيد السور بهذه الطريقة المنفصلة ، حتى انه يسمح للمتجولين في الشمال ان يتسللوا خلال المنافذ ؟ والجواب هو ان طبيعة الانسان لا تمكنه من انجاز شيء سوى اهداف محدودة ، وليس بامكانه فهم « الكل » ، ورؤياه منفصمة غير متواصلة كما ان امنه لا يمكن ان يكون تاما ، ولا يستطيع تحقيق اهدافه الا بطريقة متقطعة جزئية .

وليس من شك في ان ما يسبب تشييد السور في النهاية بهذا الشكل المنفصل هو « الامر العلوي » ورغم ذلك فان المجادلة في قرارات هذا الامر العلوي لا تجدي شيئا على الاطلاق . وليس سبب ذلك ان مثل هذه المجادلة تعد كفرا في حد ذاتها ، بل لانها تصبح على المدى الطويل عبثا لا طائل من ورائه . وفي هذا المجال ، لا يستطيع المنطق الا ان يقودنا الى نقطة معينة ، وما من جواب وراء ذلك سوى في الرمز الذي قدمه كافكا في القصة للنهر ابان الربيع . ومع مضي حوادث القصة ، يتحول موضوع السور بطريقة نامية حية الى سلسلة من التأملات الشعرية حول العلاقة بين اهل الصين والبلاط الملكي في بكين ، اي بين الله والانسان . وبينما يتمثل ابتعاد الاله في قصة « كلب يبحث » « Investigations of a Dog » كابتعاد في الزمن ، فان السور في قصة السور تتعلق في معظمها بالمكان ، « فبكين » العاصمة بعيدة جدا عن القرويين الذين يعيشون في الجنوب حتى انهم لا يكادوا يتصورون وجودها ، وهم يتعبدون لملوك ماتت منذ زمن بعيد ، ولا تترامى الانباء التي تصل من القصر الملكي الى اسماعهم سوى مهملة باطلة المفعول . ويستبين عجز الصينيين عن امتلاك امبراطورهم في واقع واخد حي كانعكاس لفكرة الله كما يعرفه الانسان الحديث وهي فكرة غير محددة ، غامضة ، وفوق كل شيء فكرة عتيقة . فالانسان الان لا يدرك كنه القوى التي تحكم حياته ، فاذا عرف شيئا عن الالوهية فهي معرفة تاريخية خالصة .

والشجار بين المفسرين الدينيين والمفسرين النفسيين لادب كافكا ليس بذي اهمية عظيمة ، لان عمله يجمع من المعاني ما يكفي لان يدعم جزءا من الحقائق التي تخرج بها هاتان المدرستان كلتاهما . وعلى هذا يمكن تفسير حادثة الاب الذي يحكم على ابنه بالموت غرقا في « الحكم » على ضوء فكرة فرويد عن الاب الطاغية . وفي نفس الوقت يمكن ان يكون اله القصاص وقد قام في غضب ليحطم الوهم الذي يبين للانسان في اقامة كفاية ذاتية في هذه الدنيا . وليس هناك اي تعارض بين هذين التفسيرين في اساسهما ، فهما اولا ليسا بمتضادين ، وثانيا فان قراءتنا للقصة وفهمنا لها ـ كما انها تعتمد على وجهة نظر المؤلف ـ فهي تعتمد في نفس القدر على وجهة نظرنا الخاصة في حدود معينة . وقد كان في شخصية كافكا عنصر من الخضوع الجوهري يمنعه من الشروع في اثبات اي اتجاه معروف عن الحياة او اي فكرة عنها . وقد قال هذا بوضوح في احدى مأثوراته التي كتبها عن نفسه بضمير الغائب : « انه لا يثبت الا نفسه ، وبرهانه الوحيد هو ذاته ، ولذلك فان خصومه قد تغلبوا عليه في الحال ، ليس عن طريق دحضه (فهو ممن لا يمكن دحضهم) ولكن عن طريق اثبات ذواتهم . »

اما ان كافكا كان رجلا ذا مزاج ديني فهذا ما لا اشك فيه ابدا . فمع انه قد خلق صورا مبرزة في الفشل والاحباط الانساني ، ويميل الى الشعور بانه سجين في هذه الدنيا ، وتعذبه الكآبة والعجز والضعف والخيالات المحمومة التي تراود السجين ، فانه لم يتخل عن ثقته في معنوية الوجود وروحيته ، وفي القهار ، كما انه فقد الثقة في مجهوداته الادبية لانه كان يريد لكتاباته ان تصل الى القوة التي تتمكن معها من رفع العالم الى المملكة « النقية ، الحقة ، الثابتة . » ومع ذلك ، فليس هناك شيء في اوراقه الخاصة او في رواياته يجيز الزعم القائل بانه كان يعتقد في اله خاص به يوافق على النظم الجامدة التي تتصل بالدين الرسمي . وحتى الخطيئة الاولى ، وهي العقيدة القريبة من مركز اعماله ، كان يفسرها في تبصر بان اساسها هو الشكوى التي يرددها الانسان ولا يكف عن ترديدها « بان سوءا قد ارتكب في حقه وان الخطيئة الاولى قد وقع وزرها عليه . » وينظر العالم الديني الى هذا على انه مجرد خرافة ، خرافة رقيقة تتهم نفسها ، ولكنه خرافة على اي حال . وقد اشار الناقد الالماني « فرانز بلي » الى كافكا ـ وكان من معارفه الشخصيين ـ باعتباره « خادما لاله لا يعتقد فيه احد . » كانت تقواه متناقضة ، مستمدة من التعريفات والتصنيفات المحددة ، بعيدة كل البعد عن الهدوء والتقليدية ، ترفض السلوى التي يقدمها الدين في اباء ، وتصر رغم ذلك على شق طريقها الى نوع من الايمان « كالقصلة في ثقله وفي خفته » ، ونوع من التقوى لا تجد متنفسا لها في الافكار العامة ولا في الفكر المنطقي بل في لغة الفن فقط ، تلك اللغة التي تقدم كل شيء ، ثم لا تزعم شيئا ، ولا تؤكد شيئا ولا تثبت شيئا في نفس الوقت .

ولد كافكا في عام ١٨٨٣ من ابوين يهوديين من عائلة متوسطة . ويبدو انه قد فقد ثقته بنفسه في مطلع حياته ، واستبدل بها كما يقول

« شعورا لا حد له بالاثم . » وقد وسمت حالات الضياع والفشل وفكرة عدم وجود حل لابسط المشكلات الانسانية ، وسمت فترة شبابه بالحزن والهمت فنه بعد ذلك . ويقف ابوه في مركز حياته كشخصية تتفق تمام الاتفاق مع فكرة فرويد عن الرعب المتمثل في الاب الاول . كان الاب نشطا ، صلفا ، متقلبا ، ناجحا ، محترما ، وكان يتعرض بالسخرية لميول ابنه غير العملية وتجوالاته الروحية دون أن يقصد سوءا من وراء تلك السخرية بل هي طبيعته املت ذلك عليه . وكانت الام رغم شفقتها على ابنها مستغرقة بجل عواطفها في امور زوجها لدرجة جعلتها عاجزة عن ان تتخذ لنفسها دورا مستقلا . وهكذا تعرض فرانز الصغير لتطرفات العزلة واستبطان النفس ، تلك التطرفات التي كانت تلغي نفسها دوما عند التفكير في التكامل عن طريق الزواج وانجاب الاطفال وممارسة اعباء مهنة محترمة . (« مهنة حقة ... المهنة المناسبة » .) . وكان تأثير ابيه عليه ظاهرا لدرجة جعلته يتعثر في حديثه امامه ، رغم انه يتحدث عادة بطلاقة فائقة . وقد كتب في خطاب وجهه الى والده بعد ذلك : « لقد بدأت تأخذ تلك الصفة الغامضة التي يتصف بها جميع الطغاة الذين يعتمدون في تفوقهم على شخصياتهم وليس على الحق . » ومن الواضح ان مصدر فكرة السلطة التي، تشيع في معظم اعماله يرجع الى موقفه المتناقض تجاه والده ، موقف يتمثل في نفور فياض وشعور بالماثلة ايضا . ونحن نرى البطل في اعمال كافكا القصصية الرئيسية والذي تظهر فيه عناصر من شخصيته الذاتية، نراه دوما وقد قهرته قوى ما فوق الطبيعة ، تلك القوى التي تجد دائما ما يبررها ويعلي من شأنها حتى ولو ظهرت في ثياب بيروقراطية ظالمة متوعدة . ويحكي « ماكس برود » ،صديق كافكا الحميم ومؤرخ حياته الذي نشر كتاباته بعد وفاته ، يحكي انه حاول ان يدلل لرفيقه على خطأ احساسه الذاتي بالحقارة وخطأ مغالاته المزمنة في الاعلاء من شأن والده. ولكن هذه الاحاديث كانت تذهب قبض الريح لان كافكا كان يدلي بسيل من الحجج يصد بها اقوال صديقه ويفندها . وقد تحقق ماكس برود انه لا يمكن لامرىء ان يتساءل عما كان يجدي كافكا قبول والده له الا من وجهة نظر احد الغرباء البعيدين عن كافكا واحساساته . فقد كان واضحا ان حاجته الى هذا القبول يمثل لديه شعورا فطريا لا ينقض دام الى اخر ايام حياته .

وفي عام ١٩٠٦ حصل كافكا على اجازته في القانون من الجامعة الالمانية في براغ ووجد عملا بعد ذلك في شركة للتأمين ضد الحوادث. غير ان اهتماماته الحقيقية كانت تتمثل في ميدان الكتابة ، وقد مارس هذا الاخير بكل حماس اخلاقي ، معتبرا اياه بذلا مقدسا للطاقة الانسانية وخطوة للاتصال ببني الانسان ، وانعكاسا باهرا للادراك الديني . ورغم ذلك فان الكتابة لم تكن لتقيم أوده ، فبالاضافة الى اعتراضه من ناحية المبدأ على تحويل الموهبة الادبية الى مصدر للمنفعة المادية ، كانت امامه عقبات اخرى في هذا السبيل . وكان يكتب في سرعة خاصة به ، يملؤه سخط متوهج . وكانت تنملكه في نفس الوقت حاجة ملحة لان يقف على قدميه ، لان يستقل سريعا عن عائلته . ورغم ذلك فقد عملت وظيفته في شركة التأمين على تفكك شخصيته ،للتناقض التام بينها وبين مهنة الكتابة.

ويكتب كافكا في خطاباته عن الادب باعتباره امله الوحيد في السعادة وتحقيق الذات . وعندما كان يتحدث عن الحالات التي تشبه حالات الغيبوبة والتي تجعله يقترب من الاحساسات الانسانية العادية ،يضيف بان هذه الحالات كان ينقصها هدوء الالهام ، مما يجعلها لا تساعد على الكتابة الحسنة . وهو يتحدث عن نفسه على انه بسبيل خلق « عقيدة سرية جديدة ، عقيدة صوفية » ،غير ان اجاباته عن معنى العقيدة كانت مشتتة متناقضة . (وقد قال « ماكس برود » بحق ان اصراره هذا كان اصرارا اخلاقيا وليس اصرارا فكريا) . ونحن نقرأ في يومياته : « انني امثل العنصر السلبي للعصر الذي اعيش فيه ... وبخلاف كيركجارد(٤)» لم تقد حياتي يد المسيحية الثقيلة ، ولا انا تعلقت كالصهيونيين باحد اطراف اردية اليهود المحلقة في الفضاء » . ويبدو ان الشائبة الوحيدة في علاقة كافكا « بماكس برود » كان مبعثها بزود كافكا تجاه الصهيونية. وكان قد كتب مرة : « ماذا يجمع بيني وبين اليهود في الوقت الذي لا يكاد يوجد هناك ما يجمعني ونفسي ؟ » .

وكان عام ١٩١٢ عاما مصيريا في حياته ، فقد قابل « فيليس ب. » تلك الفتاة التي جاءت من برلين والتي كان يرغب في الزواج منها ، ولكن الظروف اجبرته على الابتعاد عنها . وقد عانى شجنا طاغيا من جراء فسخ خطوبته لها مرتين . كان يشعر ان الزواج عمل مستحيل بالنسبة لرجل مقطوع الصلة في مثل ظروفه ، رجل يعتقد الاستقلال الاجتماعي والتوافق الآمن في حياته . وقد شهدت هذه السنة كذلك التقاء مقاصده الادبية مع منهجه المستمر في سبر غور نفسه الداخلية، مما اتاح له ان يتقدم وئيدا بخطى ثابتة في عمله . ولو قارنا ما كتبه ابان خريف هذا العام بكل ما كتبه قبل ذلك لبدت هذه الاخيرة مجرد تخطيطات ناقصة لا اكثر . وفي ليلة ٢٢ سبتمبر من نفس هذا الخريف كتب الحكم The Judgment في جلسة واحدة . وقد قال بعد ذلك انه حمل عبء وزره على ظهره اكثر من مرة في خلال هذه الفترة التي امتدت من العاشرة مساء حتى السادسة من صباح اليوم التالي. والحكم هي اول قصة كافكية تظهر فيها سمات ادبه المعروفة ، كما انها اول قصة سبر فيها المؤلف موضوع الصراع بين الاب والابن الى الاعماق . وفي نفس الشهر او الشهر الذي تلاه ، كتب كافكا الفصل الافتتاحي الطويل لروايته الاولى « امريكا » ، وفي نوفمبر اكمل اعظم قصصه « المسخ » وحقق فيها تأثيرا فعالا عن طريق تناوله الكامل للتفصيلات الواقعية التي تساند وتدعم الرؤيا الكئيبة لموضوعاته القصصية . وهذه القصة تجسيد حي لصفتي الضرورة والتطرف ، تجسيد لاحساس امرىء جثم الوجود على انفاسه وليس امامه الا الانتماء الى هذا الوجود . ويمس هذا كله شعورنا حين نقرأه في اعمال كافكا لانه يشتمل على المنهج وعلى المضمون ، على الطلب وعلى الاستجابة ،على الهدف .وعلى الطريق في آن واحد . وعن طريق هذه الصفة « الوجودية » فقط ينجح كافكا في تجسيم عالمه امامنا ، وينقل نداء الحقيقة الذي لا يخطىء الى عناصر هذا العالم التي لم تكن لتبدو بدونه سوى نتاج خيال غريب ضال . ويمكن لي ان اقول ان كافكا قد حقق تماما ولال مرة فكرته الخاصة عن الكتابة في قصة « المسخ »، وهي فكرة تتصف بباطنية والحاح لا يوصفان. وقبل كتابة هذه القصة بفترة طويلة ،حاول كافكا ان يشرح معنى الكتابة كما يتراءى له ، فقال في خطاب الى صديقه اوسكار بولاك : ان الكتب التي نحتاج اليها هي تلك التي تؤثر فينا تأثير الكارثة ، تلك التي تجعلنا نقاسي نفس المعاناة التي نمر بها حين يموت لنا احد الاقارب الذين نعزهم اكثر من انفسنا ، تلك التي تجعلنا نشعر كأننا على شفا الانتحار او تائهين في غابة بعيدة عن العمران ،وهكذا يجب على الكتاب ان يعمل عمل الفأس في البحر المتجمد في نفوسنا .

وفي اكتوبر من نفس العام ، كتب « ماكس برود » في يومياته : « ان كافكا في حالة من النشوة ، قائما يكتب طوال الليل... » وايضا « ... ان كافكا تنتابه حالة غريبة من النشوة . » وتتضمن هذه النشوة شيئا اكثر من الاعلاء وشعور الحرية التي يمر بها الكاتب عادة حين يتقدم في عمله الفني تقدما محسوسا . ويستبين من الطبيعة الاكراهية لقصتي « الحكم » و « المسخ » ومن تعليقات كافكا عليهما في يومياته ان هاتين القصتين كانتا الفأس الذي حطم بحر الثلج بداخل نفسه ، او بمعنى اخر ، ان عملية خلقهما تضمنت النفاذ الى طبقات من مادة مكبوتة لم يكن في الامكان ادراكها قبل هذا الوقت . ويبدو كما لو ان المعاناة العصابية في كافكا والفنان فيه تعاونا واتفقا في رواياته التي تتميز بالحركة النفسية في سبيل الحفاظ على الحياة الفالية . ويمكن للمرء في دقة ان يقول عن مثل هذه الاشياء ـ متفقا مع « ييتس » ـ انه كلما كان الخلق لاشعوريا ، كان اكثر قوة .

وتقوم رواية « امريكا » ، التي بدأ كافكا كتابتها في تلك الفترة ،

(٤) سورين كيركجارد (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) فيلسوف دنمركي،تعتبر فلسفته بداية النظرية الوجودية الحديثة في الفكر . من كتبه المشهورة: هذا او ذاك Either-Or الذي صدر في ١٨٤٣ .

على مبعدة من اعماله الاخرى ، فهي تفتقد ذلك العنصر غير الطبيعي ، وليس فيها ذلك الاستدعاء للقوى الخفية او اي تصوير ملغز للعالم المعروف المألوف ، وهو الاسلوب الذي اتبعه كافكا بعد ذلك من اجل تطعيم رواياته بعنصري اللامعقول والابهام . وهي الرواية الوحيدة من بين اعمال كافكا الذي اطلق الفنان فيها العنان لنزعته نحو كتابة الملهاة . ورغم ذلك فانه لم يقصد من وراء كتابتها عرض نقائص معينة ، بل قصد تصوير الموقف الانساني المتميز . وقد كتب كافكا في دفتر ملاحظاته : « لو ان حوادث الملهاة نظمت تنظيما متناسقا لتحولت الى حقيقة واقعية . »

ويمكن لهذه العبارة ان تكون شعارا لهذه الرواية البيكارسية(٥) (امريكا) وهي تحكي مغامرات صبي في السادسة عشرة من عمره ـ كارل روسمان ـ من اهالي براغ ، في مدن الولايات المتحدة التي طغت عليها الآلية . ولم يكن كافكا قد رأى الولايات المتحدة قط عند كتابته لهذه الرواية ، بل انه كون صورة محددة في ذهنه عنها فحسب .

وكان كافكا يميل بحكم نوبات الضياع والفشل التي انتابته الى الاطلاع في دهشة واعجاب بالغين على كل امثلة الارادة البناءة ، على قدرة الانسان على اكتشاف مهنته الحقيقية ، على امكانه تحقيق التكامل مع مجتمعه ، هذا المجتمع الذي كان يربط كافكا باعظم القيم والذي أعتقد انه يكمن بعيدا عن متناول يده . ويمكن مطابقة الاسى الذي كان يغمره بصفة دائمة بذلك الذي شعر به بطل قصة هوتورن (٦) « مكتب المخابرات » الذي لم يكن يكف عن الصياح قائلا : « اريد مكاني ، مكاني الشخصي ، مجالي المناسب ، اريد عملي الذي خلقتني الطبيعة لأؤديه حينما شكلتني على هذا النحو والذي بحثت عنه طوال حياتي عبثا ! » ولهذا السبب كان بنيامين فرانكلين من بين الشخصيات التاريخية المحببة عند كافكا ، وهو الذي نجح في كل ما تولى من الامور ، كما ان كتاب « السيرة الذاتية » لفرانكلين واحد من مصادر رواية «امريكا». ومع ذلك فلا يظن احد ان كافكا قد فتن بفكرة « رتشارد المسكين » (٧) عن نفسه او بفلسفته العامة ، ولكنه اهتم من نموذج الطبيعة الامريكية هذا بعنصر القدر الذي لا يمكن تفسيره ، ذلك العنصر الذي ظهر على شكل ايجابي في هذا العمل . واغلب الظن انه قرأ توصيات « ريتشارد المسكين » التي يحث فيها على اتباع الفضيلة . وقائمة الامثال التي اعدها عن سكينة النفس والاعتدال في النفقة والاعتدال في الطباع ، والاعتدال في كل شيء ، وما شابه ذلك من الموضوعات ، كما يقرأ المرء سفرا عن الاستراتيجية . قرأ كافكا هذه الاعمال ، وفسر هذه الاقوال الحكيمة الكئيبة على انها خطوات في تلك اللعبة المتشابكة التي يسعى فيها المرء لنيل الحظوة عند القوى المجهولة التي تسود قوانينها كل شيء رغم ان مرماها ومعناها غير معروفين ولا يمكن معرفتهما .

وكان ما جذب كافكا نحو فرانكلين ذلك المظهر الذي يجعله شبيها باوليس (٨) ، وقد تصور ان امريكا لدى فرانكلين مثل البحر الابيض لدى البطل الاسطوري . وكان يعتقد ان الامريكيين لم يرسموا الابتسامة على شفاههم الا لانهم تمكنوا من ايقاع الهزيمة بالقدر ، ربما عن طريق الحماية التي كفلتها لهم ابعاد العالم الجديد غير العادية .

ويتسم بطل « امريكا » (كارل روسمان) بالبراءة حقا ، وهو في هذا المجال يختلف اختلافا جوهريا عن « ك. » بطل روايتي «المحاكمة» و «القلعة» . فـ « ك. » يتناول مشكلة الاثم بطريقة تشريعية في معظمها متأثرا في ذلك بالمنهج العقلي ، ويحاول الانتقام من الكوارث التي نزلت به ، ويجاهد في سبيل اغلاق سراحه باثبات براءته من ارتكاب اي جرم عن طريق اجراءات منطقية . اما كارل فانه يعاني من الاضطهاد دون ان يفكر في الانتقام او يعكف على التفكير طويلا في الاساءات التي ارتكبت في حقه ، ولم يفه بكلمة احتجاج حين طرده عمه الثري بعناد من منزله دون اي سبب على الاطلاق ، بل بدأ يلائم نفسه في هدوء مع الموقف الجديد . وهو ليس بشخصية ذاتية بل ان طاقته من ذلك النوع الحنون الذي ينساب في اضيق المسالك في وداعة ولطف .

ويصيب كارل شيئا من سخرية كافكا، فقد وقع في احابيل سلسلة من الحوادث والاخطاء وسوء الفهم دقيقة في ظروفها سحرية في تتابعها. واحاط حسن الحظ بخطواته الاولى في امريكا ، تلك البلاد التي لم يجرؤ على التمعن في آليتها البيروقراطية الهائلة المحيرة عن قرب . غير انه لم تمض سوى شهور قليلة حتى دهمته الكوارث فجأة واضطرته الى البحث عن عمل في رفقة اثنين من اللصوص العاطلين : « ديلا مارش » و « ربنسون » . وبعد محاولات عدة ، يتشيء صداقة مع امرأة لها روح اثينا الهة الصيد في صورة مديرة احد الفنادق . ولكنه يفقد منزلته تلك ايضا حين يبعده رفيقاه اللصان عن عمله ليرغماه بعد ذلك على الالتحاق بخدمة « برونيلدا » ، وهي امرأة تشبه الساحرة « كيركي » (٩) في الجو الذي تعيش فيه ، والتي دفعت باللصين الى شهوانية قذرة .(واني اعتقد ان الفصل السابع « الملاذ » ، الذي يصف المطاردة المضحكة بين كارل ورجل البوليس ، وملاقاته « برونيلدا » الفريدة ، والاستعراض الانتخابي ، وحديثه مع الطالب الذي يتغذى على مشروب القهوة ، لهو عندي من احسن ما كتب في الروايات الحديثة) وفي النهاية يفر كارل من معقل « برونيلدا » ليجد عملا في مسرح اوكلاهوما الطبيعي ، وهو احد المشروعات الكريمة الخيالية ، يفتح الباب للعاطلين الى جنبانه الرحبة حيث يحصلون على عمل ويتم التوفيق بينهم وبين المقاصد الخفية للقوى التي تحكم حياة الانسان .

ولم يحاول كافكا ان يقدم فكرة حقيقية عن امريكا ، فتفاصيله عنها لا تطابق الحقيقة بالمرة . غير ان الصورة في مجموعها تكون حقيقة رمزية غريبة . واذا كانت هذه الرواية من وجهتها الواقعية مجرد محاكاة ساخرة لخيال « ريتشارد المسكين » (أي لحياة الامريكيين) فهي من وجهتها الادبية تستمد شيئا من ادب « ديكنز » . « فدافيد كوبرفيلد » الولد الطيب الذي يستخدم ذكاءه في اوقات المحن والتجارب للاستفادة الى اقصى حد مستطاع من الفضيلة التي يتحلى بها ، ما هو الا طراز لكارل بطل « امريكا » ، ولكن تقليد رواية ديكنز بهذه الطريقة يعتبر تناولا هزليا لها ، وهو شبيه باستخدام جويس للحمة هوميروس في رواية الاول « يوليسيس » .

وان المرء ليفتقد في رواية امريكا ذلك المضمون العميق الذي يميز اعمال كافكا الاخرى . ومن الواضح ان خياله لم يدعم تلك المجهودات التي بذلت في القصة للسير بحياة احد الشبان الى نهاية سعيدة، بل كان خياله اقرب اليه حين كتب عن القلاع والمحاكم المخيفة حيث يطوف « ك. » بحثا عن العدالة حتى يكتشف في النهاية ان العدالة بقدر ما

---

(٥) The Picaresque Novel ضرب من الروايات ظهر في القرن السادس عشر . والروايات من هذا النوع ترجمة ذاتية لشخص يصف تجاربه ومغامراته الاجتماعية وينتقد فيها عيوب مجتمعه .

(٦) ناثانيل هوتورن (١٨٠٤ ـ ١٨٦٤) من كبار الروائيين الامريكيين . تتميز كتاباته بالبيئة الامريكية الواضحة ومناقشة القضايا الاخلاقية . من اشهر رواياته « الحرف القرمزي » و « المنزل ذو القباب السبع . »

(٧) Poor Richard دليل كان « بنيامين فرانكلين » يصدره في امريكا ويكتب فيه مجموعة من الاقوال والنصائح والاحكام . وهو يعتبر نموذجا لاخلاق وعادات الامريكيين وتفكيرهم في هذه الفترة من القرن الثامن عشر .

(٨) « اوليس » بطل ملحمة هوميروس « الاوديسة » . وقد رأيت ترجمته هكذا حتى لا يخلط القارىء بينه وبين رواية جيمس جويس التي ترجمتها « يوليسيس » .

(٩) « Circe » شخصية من شخصيات ملحمة الاوديسة لهوميروس، وهي التي سحرت اتباع اوليس الى خنازير ، واجبرها هو على ارجاعهم الى صورتهم الانسانية .

هي حتمية فانها ليست بذات معنى . « فامريكا » تندرج تحت ما يمكن ان نطلق عليه الجانب النفسي لفن كافكا . وتبدأ حركة هذا الفن من علم النفس الى علم الاساطير التجريبي (اي من الملاءمة الفورية بين حالات شخصية داخلية الى عرض هذه الحالات على العالم الخارجي .) وهكذا فان الاساس الصحيح الذي تقوم عليه اعماله يتجسم في البداية ـ كما يحدث في « الحكم » و « المسخ » ـ في شخصية اب حقيقي ، اب يمكن بسهولة مطابقته بفكرة فرويد عن الرومانسية العالية (١٠) ، بينما لم يعد للاب في الروايات التالية الاكثر طولا شخصية يمكن التعرف عليها في الحياة المألوفة ، فقد تم اقصاؤه عن حياة الاسرة ، واصبح فكرة عامة: كقوة من القوى الرسمية ، مقدسا، قصيا ، خفيا ، مثل القانون اوالمحكمة او مثل طبقات الموظفين الذين يقطنون القلعة .

وفيما يختص بهذا الخط من التطور ، يمكن اعتبار قصة « مستعمرة العقاب In The Penal Colony » قصة انتقالية. وقد كتبها كافكا في نوفمبر ١٩١٤ حين بدأ العمل فعلا في رواية «المحاكمة». وتتضح الاشارات الدينية في القصة الاولى اكثر مما سبقها من القصص ربما لانها تبين تأثير كيركجارد الذي اكتشفه كافكا لاول مرة في عام ١٩١٣ . ويستبين القارىء من شخصية القائد العجوز الذي تنبعث ذكراه المخيفة في قصة « مستعمرة العقاب » بعض السمات الفردية التي يتصف بها الاب « الحقيقي » ، وفي نفس الوقت تتخذ هذه الشخصية الشكل الاسطوري الملغز الذي يتخذه رمز السلطة كما صوره كافكا في رواياته التالية .

وعلى المدى الطويل ، لم تفلح محاولات كافكا لسبر غور حياته النفسية في ان تنقذه من مخاوفه التي دمرت اعصابه ولا من شعوره بالاحتقار الذاتي . وداوم على شجاره مع نفسه ، وعلى خططه التي وضعها لعقاب هذه النفس ، بل انه فكر في الانتحار قائلا « لقد احمل بالزاك عصا مكتوبا عليها هذا الشعار « انني احطم اي عقبة » ولكن شعاري هو « كل عقبة تحطمني » » .وقد اثر تذبذبه المستمر بين الكتابة وبين عمله على صحته كثيرا ، فعانى من نوبات الصداع والارق ، حتى هاجمه اخيرا مرض السل واضطره الى قضاء عدة سنوات في المصحات. وقد اعتبر كافكا مرضه ذا حتمية نفسية : « لقد تآمرت نفسي مع رئتي من وراء ظهري » . ولم يتثبت من حاجته الى الاستقلال بحياته الا في عام ١٩٢٣ حين قابل « دورا دايمانت » ـ وهي فتاة نشأت في عائلة يهودية محافظة في بولندا ـ ووجد نفسه في حالة طيبة تسمح له بالانتقال معها الى برلين . غير ان الوقت كان قد فات لتعويض ما فقده من سنوات المرض والشقاء . وفي يونيو ١٩٢٤ مات كافكا في احد المستشفيات بالقرب من « فينا » بداء سل الحنجرة ، وكان عمره واحدا واربعين عاما .

ولم ينشر كافكا ابان حياته سوى بعض اعماله القصيرة ، كما انه لم يكمل ايا من رواياته الثلاث الى نهايتها . وقد كتب قبل وفاته الى « ماكس برود » طالبا منه احراق جميع المخطوطات التي خلفها وراءه . ولحسن الحظ اخذ هذا الصديق على عاتقه مسئولية اغفال هذه الوصية الاخيرة اليائسة .

القاهرة — **ترجمة ماهر البطوطي**

---

(١٠) يقول فرويد ان الطفل حين يشب عن الطوق ـ بل وفي طفولته الاولى ـ يحس بالحب نحو امه وبالغيرة من ابيه ، ويتمنى في اللاشعور ان يختفي هذا الاب ويزول عن طريقه . وكل طفل يمر بهذه التجربة ولا تزول عنه الا حينما ينمو وتتجه اهتماماته نحو العالم الخارجي .

مجموعة تراث العرب

تصدر باشراف لجنة من المحققين

**

صدر منها — ق. ل

١ ـ	لسان العرب	٦٥ جزءا	٢٦٠٠٠
٢ ـ	معجم البلدان	٢٥ »	٨٠٠٠
٣ ـ	الطبقات الكبرى لابن سعد	٨ مجلدات	٨٠٠٠
٤ ـ	رسائل اخوان الصفاء	٤ مجلدات	٣٦٠٠
٥ ـ	البخلاء للجاحظ		٦٠٠
٦ ـ	مقامات الحريري		٧٥٠
٧ ـ	مصارع العشاق لابن السراج	جزآن	١٢٠٠
٨ ـ	الائمة الاثنا عشر لابن طولون الدمشقي		٢٥٠
٩ ـ	مجمع البحرين لليازجي		٦٠٠
١٠ ـ	مشارق انوار القلوب لابن الدباغ		٥٠٠
١١ ـ	تاريخ ولاة مصر للكندي		٧٥٠
١٢ ـ	رحلة ابن جبير		٦٠٠
١٣ ـ	رحلة ابن بطوطة		١٥٠٠
١٤ ـ	تاريخ اليعقوبي	جزآن	٢٠٠٠
١٥ ـ	تاريخ الدول الاسلامية		٧٥٠
١٦ ـ	الادب الصغير والادب الكبير لابن المقفع		٣٠٠
١٧ ـ	المحاسن والمساوىء للبيهقي		١٢٠٠
١٨ ـ	آثار البلاد واخبار العباد للقزويني		١٥٠٠
١٩ ـ	رسالة الغفران لابي العلاء المعري		٨٠٠
٢٠ ـ	الكامل في التاريخ لابن الاثير		٢٠٠٠٠
	١٢ مجلدا ومجلد للفهارس		
٢١ ـ	ادباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام للاستاذ بطرس البستاني		٧٠٠
٢٢ ـ	منتقيات ادباء العرب في الاعصر العباسية للاستاذ بطرس البستاني		٦٠٠

الناشر : دار صادر ـ دار بيروت